المقال الحادى عشر

إلاّ التعليم يا بيريز !!

علمتا التجارب الداكنة والأحداث الفاجعة أن التعامل مع اسرائيل وقادتها يدفعنا إلى الالتزام بالمثل العربى القائل (حسن الظن وَرْطَة ، وسوء الظن عِصمة) تذكرت هذه المقولة بعد قراءتى لماورد فى مقال نُشِرَ فى أوائل عام ١٩٩٥ من أنه فى لقاء القمة الرباعى فى طابا طرح شيمون بيريز خطة (تتضمن التوصل إلى عمل برنامج تعليم موحد للشرق الأوسط ، يتم تجهيزه بالكامل بواسطة الكمبيوتر ، وتحت إشراف إسرائيل !!) . ومع ما أصابنى من ذهول من جراء مثل هذا الخبر ، إلا أننى رأيت أن ما اعترى الخبر من اقتضاب وغموض جعلنى لاأصرف مزيداً من الانشغال به ، حتى تتضح بعض معالمه .

ثم تجىء مجلة (روز اليوسف) بتاريخ ١٣/ ٢/ ١٩٩٥ ، أى بعد

---

* مقال نشر فى أوائل ١٩٩٥ ، بمناسبة محاولة بيريز للحديث عن برنامج موحد للتعليم ، عن طريق برامج الحاسوب .

أسبوع من نشر تلك المقالة فى الصحف ، فتنشر فى صفحتها الأولى ملخصاً عن (تقرير للسفير المصرى فى تل أبيب) يورد فيه سيادته (أن صحيفة دافار أشارت إلى لقاء الوزيرين عمرو موسى وشيمون بيريز مع أربعة من كبار المسئولين الذين يمثلون أكبر أربع شركات للكمبيوتر فى أوربا لبحث فكرة بيريز. بشأن توسيع استخدام برامج الكمبيوتر فى جهاز التعليم فى الشرق الأوسط . وأضافت الصحيفة « الإسرائيلية » أن الوزير عمرو موسى أبدى اهتمام مصر الشديد بذلك . وتم الاتفاق على معاودة اللقاء بين الأطراف الستة فى شهر فبراير ...) .

ومع إدراكنا لما قد تفرضه الديبلوماسية من مجاملات ، ولما قد تحمله إمكانات الكمبيوتر من مردود على فاعلية العملية التعليمية، إلا أن انطلاق المبادرة والمبادأة من قيادة إسرائيلية يثير فى نفسى كثيرا من التوجس والريب والشكوك . وبكل سذاجة المواطن العادى، يضطرب عقلى ووجدانى بالتحذير من أنه قد يكون وراء الكمبيوتر ماراؤه . وكمعلم لا ينكر دور الكمبيوتر فى مهنته ، إلا أن ذلك المشروع مع ما يحمله من قضية حق ، يُخشى عليه كذلك من أن يتلبسه الباطل . وقد امتدت خشيتى إلى الظن بأننا على عتبات سوق شرق أوسطية للتعليم تحت دعاوى التعاون الإقليمى فى مجال التطوير التكنولوجى للتعليم فى مصر، وفى غيرها من الأقطار العربية بقيادة إسرائيل ومعاونيها من الشركات المتعدية الجنسية .

لقد علمتنا التجارب الداكنة والأحداث الفاجعة أن إسرائيل تطرح

أحلامها فى التوسع والهيمنة على امتداد الساحة من النيل إلى الفرات، وتنتقل بها من مستوى المناورة والخداع والتمويه والتزييف، وغير ذلك مما يشعر « بالتمسكن حتى التمكن » كما يقال ، حتى يبلغ مرحلة العدوان والاحتلال للأرض والقتل والتعذيب والاضطهاد وممارسة كل صور الاستعلاء والحقد العنصرى . بالمخادعة والغدر تحقق حلم هرتزل من خلال وعد بلفور ،،وهجرة اليهود المكثفة إلى أرض فلسطين، تحت الزعم بأنها وطن بلا شعب ، تبريراً لاغتصابها ، حتى تصبح لبنى إسرائيل ، وهُم شعب بلا وطن . وادعت إسرائيل أنها تريد السلام مع جيرانها ، لكنهم هم الرافضون. ولما قبلوا الدخول فى عملية السلام، انقلبت من التمسكن إلى التمكن ، ومن شروط الأرض مقابل السلام ، إلى الضغط للتفاوض بشروطها لضمان أمن إسرائيل أولاً وأخيراً ، حتى لو اقتضى الأمر التهديد بالحرب .

ثم ألم تكن السوق الشرق أوسطية حلماً من أحلام بيريز كما ورد فى كتابه عن الشرق الأوسط الجديد ، وقد وقعت أعيننا على هذا الحلم أول ما وقعت فى سطور بأحد الصحف القومية من أجل أرض مصر الخضراء. وبالمناورة والخديعة والتزييف ووسط صيحات المؤيدين والمحذرين يتعالى هدير السوق، حتى نواجهها حقيقة عالمية فى الدار البيضاء وفى دافوس بسويسرا ، وسوف تستوى موجاً متعاظماً فى اجتماعات الأردن وقطر وغيرها وغيرها ، فقد حدث « التمكن » فى غفلة المشاركين من ضحايا العرب ممن يخشى عليهم من الغرق .

وهل يتذكر السيد بيريز مفاعل إنتاج السلاح النووى فى ديمونا بصحراء النقب وعلى مقربة من حدودنا . لقد زعمتم من قبيل التمويه والخداع خلال الخمسينيات أنه لا يوجد مفاعل نووى ، وإنما هو مصنع للنسيج تارة ،ومحطة لضخ المياه تارة أخرى. ولما ازدادت درجة « التمكن» أعلنتم فى أوائل الستينيات أنه مفاعل نووى لأغراض الصناعة والزراعة والبحث العلمى . ولما بلغ « التمكن» مرحلة أقوى ؛ أخفيتم ما كنتم تقومون به من تجارب لإنتاج القنابل اليدوية الصغيرة ، زاعمين بأنكم لن تكونوا أول دولة تنتج السلاح النووى فى المنطقة ، ورفضتم التوقيع على معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية . ثم لم يمض يوم على لقائكم بالرئيس السادات من أجل دعم السلام فى المنطقة عام ١٩٧٩حتى أغارت طائراتكم على المفاعل النووى العراقى ، ولديكم اليوم ترسانة نووية يزيد عدد رؤوسها عن ٣٠٠ .

وما تزالون حتى اليوم ، وقد أصبح لديكم مخزون من الرؤوس النووية والصواريخ الحاملة لها إلى مئات الأميال ترفضون الانضمام إلى المعاهدة الدولية لحظر انتشار الأسلحة النووية ، ولا تبالون بدعوة مصر ورئيسها إلى جعل المنطقة آمنة منزوعة من كل أسلحة الدمار الشامل . ولكم فى ذلك حجج لا نهاية لها تبتدعونها كلما وجدتم أنفسكم فى مأزق الاعتداء على القانون والمعاهدات والأعراف الدولية ، ووصل بكم الأمر إلى الادعاء بالتخوف من إيران التى تتهيأ لكى تصبح قوة نووية ... هل ينطلى كل ذلك على أحد، بل ولا حتى عليكم ، وإنما هو نهاية الطغيان والصلف والتمكن بعد مراحل التمويه والخداع والتمسكن .

وأتساءل : هل قضية استخدام الكمبيوتر من خلال خطة موحدة للتعليم فى الشرق الأوسط واحدة من الخدع التى تحاول بها إسرائيل أن تخترق نظام تعليمنا ؟ . إن الكمبيوتر ليس مجرد جهاز، وإنما هو فى الوقت ذاته برامج تحمل مضامين معرفية فى مجال الاقتصاد والسياسة والاجتماع والقيم والتوجهات والرؤى نحو الحاضر والمستقبل . ويا ويلنا لو تم اختراق هذه الجبهة من خلال الأسلوب الصهيونى ، بدءا من التمسكن حتى التمكن . ونحن نعتز بما يبذل من جهود فى تطوير نظامنا التعليمى ، لكى يصبح سلاحاً من أسلحة أمننا القومى ، دفاعاً عن هويتنا الحضارية العربية الإسلامية ، وضمانا لتماسكنا الوطنى ، وانطلاقاً نحو الإسهام فى توفير النماء والرخاء لمصر بشراً وموارد .

ومهما كان مصير عملية السلام الذى لن يتحقق إلا إذا كان عادلاً أولاً ، وشاملاً ثانيا ، فإنه لمما يستحق التنبه إليه هو أن الصهيونية عقيدة تتصارع مضمونا ووسائل مع عقيدتنا الحضارية وهويتنا القومية الإنسانية . وتختزل العقيدة الصهيونية فى مقولات مؤسسها هرتزل الذى كان يؤكد شعار (القوة فوق الحق) كما يؤكد شعار (السلام المسلح) وإلى أن التآخى بين البشر ضرب من المستحيل ، وإلى أن (الإنسان الذى يخترع مادة شديدة الانفجار يعمل لأجل السلام أكثر من ألف داعية إلى اللطف والرفق واللين)، وهو صاحب نظرية (التنكر البيئى)، حيث يمكن للصهيونية الانتقال إلى أرض الميعاد ، ثم عليها أن تحرص على البقاء فيها ريثما تتحول (الزعانف إلى أرجل حقيقية) ، أى كما أشرنا فى مطلع هذا المقال الانتقال من (التمسكن إلى التمكن) .

وتتواصل العقيدة الصهيونية العدوانية لنسمع إسحق شامير يقول : (فلنلتفت إلى معتقداتنا نحن ، حيث لا الأخلاق ولا التقاليد اليهودية تنبذان الإرهاب ، بوصفه وسيلة قتالية فى مجرى الصراع ، ولذا فنحن بعيدون كل البعد عن تأنيب الضمير إزاء استخدامنا وسائل الإرهاب .. وقد جاء فى التوراة : «امحقوهم عن آخرهم ، وأبيدوا حرثهم ونسلهم ...») ثم يطلبون منا مكافحة الإرهاب ، وهم يمارسون أبشع صور الإرهاب ، وهو إرهاب الدولة ، ثم أليس رابين هو مبتدع سياسة تكسير العظام ، والمتشدد فى تطبيق سياسة الطرد الجماعى ، وإغلاق الضفة والقطاع لأسابيع وشهور لتجويع أهلها .

والخلاصة أن أزمتنا مع إسرائيل ليست مقتصرة على إنهاء الاحتلال وتحرير الأرض، وإنما فى نوعية الثقافة العنصرية العدوانية المستعلية لشعب الله المختار . وهنا يتعدى الصراع مجال الحدود ليدخل فى مجال الوجود وإمكانية التفاعل الإنسانى المثمر بين الثقافتين . ولن يتحقق ذلك بيننا وبينهم حتى تتخلى إسرائيل نهائياً عن ثقافتها العدوانية المستعلية، والتى لا تعرف إلا السلام المسلح الذى يقوم على التهديد والوعيد والتأديب للغير من الجيران العرب .

ونعود إلى البرنامج الموحد للتعليم الذى يطرحه بيريز، ونتساءل : أى مضمون ثقافى ينقله ، وأى قيم يبشربها ، وأى تفاعل حضارى يدعو إليه ؟ . وإدراكا منا لطبيعة العقيدة الصهيونية السائدة لا بديل أمامنا إلا

التوجس والتحسب لكل دعوة تصدر من قياداتها ، حين تحاول اختراق نظامنا التعليمى تحت أية دعاوى، ظاهرها التحديث، وباطنها احتمالات التلويث لنسيج حضارتنا ومعالمه، وقيمنا وخصوصياتها العربية .

ولا بد لنا من الإشادة هنا بأن جبهة النظام التعليمى ما تزال بمنأى عن الاختراقات الصهيونية التى تعرضت لها بعض القطاعات الأخرى ، فلم تحدث حتى الآن اتصالات أو مشاورات رسمية أو غير رسمية مع قياداتنا التعليمية ، ولم يحدث تبادل للزيارات أو الخبرات بين المسئولين فى مؤسسات التعليم العام أو الجامعى . ويظل الجسم التعليمى حريصاً فى الحفاظ على مناعته ، وعلى قدرته فى التعاون والإفادة من الخبرات والتكنولوجيات المتقدمة من مصادرها العالمية الرئيسية فى الدول الأصلية المنتجة لها سواء فى الغرب ، أَمْ فى الشرق الآسيوى ، كلما اقتضى الأمر ، وفى ضوء اختياراتنا والثقة المتبادلة بيننا وبينهم ، وعلى أساس من سياساتنا التعليمية التى تسعى لتحقيق حرية الوطن وانتماء المواطن . ولا شك أن لنقابة المعلمين دورها الخطير فى تعزيز مقومات المناعة ضد عوامل التلويث لثقافة معلمينا ، أيًّا كان مصدرها .

وستظل مناهجنا تؤكد على خصوصية حضارتنا العربية الإسلامية، على أهمية التعاون والتكامل التعليمى والثقافى بين أقطار الوطن العربى ، رغم كل الصعوبات والأزمات ، وعلى الإيمان بأن السلام الذى تحقق فى مصر إنما يكلمه ويدعم السلام العادل والشامل المتمثل فى تحرير الأرض

العربية كلها ، انطلاقاً من أن الأمن القومى العربى لا يتجزأ ، ولا ينبغى أن يتعرض للتهديد من أية قوة تمتلك سلاحا نوويا ينجم عن التخويف به تعويق مسيرة التقدم والنماء فى تعليم أبنائنا وبناتنا كما نختار

وأخيرا نكرر القول ... إلا فى التعليم يا بيريز ، وغير بيريز .